قل: هو من عند انفسكم (2)

منذ أن هُدمت آخر آثار الخلافة الإسلامية عام 1924م، والدعاة الى الله يعملون من أجل توحيد العالم الإسلامي، وعودة الخلافة التي كانت رمز عزهم وقوتهم ووحدتهم، وقد اقتربوا مراراً من النصر لكنه لم يتحقق مرة واحدة خلال اكثر من ستين عاما.

لماذا لم يتحقق النصر؟!

سؤال جدير بالعناية والاهتمام، ورغم تعرض عدد من الباحثين له، فلا يزال يحتاج الى جواب مقنع، ولن يكون مقنعاً الا اذا جاء معززاً بالأدلة الشرعية وبالشواهد العصرية الدقيقة.

إن عدد الدعاة الى الله لم يكن ضئيلاً، واستجابة جماهير الامة لهم كانت قويةً، ولم يتردد جند الله في بذل اموالهم وأرواحهم عندما دعا داعي الدعوة والجهاد، وكانت شجاعتهم مثالاً تحتذى به الأجيال.

رغم ذلك كله لم يحقق هؤلاء الأبطال أهدافهم... وشاء الله لأمر يريده أن ينهزموا شر هزيمة أمام ضابط كان محسوباً عليهم، أو أمام طائفة منبوذة تافهة ومرتدة عن الاسلام، أو أمام تجمع إقليمي يضم رعاع الناس وأوباش الخلق.

ليس مستغربا أن ينتصر المسلمون مرة وينهزموا مرتين او ثلاثا بسبب أخطائهم، أما أن تكون محاولاتهم ومعاركهم كلها هزائم، فهذا يعني أن هناك خللا يجب إصلاحه. قال تعالى:

(أن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين) (آل عمران/140).

وأخطر من الهزيمة الآثار الناتجة عنها،:فالتقويمات تفتقد الدقة والموضوعية،

والتعامل مع الاحداث غير مبني على أساس صحيح، وطالما سمعنا كبار قومنا يقولون: فعلنا كل ما نقدر عليه، ولكن حجم المؤامرة كان أكبر مانطاقاتنا، وغير ذلك من الأعذار التي يرددها القادة الذين انهزموا عدة هزائم أمام حفنة من اليهود.

ومن آثار هذه الهزائم تصدع الصف من داخله، لأن الخلافات التي كانت مستورةً ولا يعرفها إلا الخاصة تظهر بشكل مفاجىء، وبمنتهى العنف والقسوة، وتنقسم القيادة على نفسها، ويبدأ التجريح والتشهير، وأحياناً الضرب والقتل وسفك الدماء.

ويصاب الجند بذهول شديد، ففلان كان يوثق فلاناً، ويثني عليه، وكأنه من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واليوم يقول عنه كلاماً مناقضاً للكلام السابق فأي القولين هو الصحيح؟! والآخر يرد الصاع الصاعين، والدعوة في إجازة، ونكاد لا نجد أحداً إلا وقد سقط في أوحال الفتنة.

ويتقوقع الطيبون المخلصون من الدعاة على أنفسهم، وينسحبون من ميدان العمل الجماعي، ويشغلون أنفسهم بقضايا هامشية لا قيمة لها.. وإذا حدثت هؤلاء عن الاصلاح، وحاولت أن تشحذ عزيمته، وتثير في نفسه روح التفاؤل، رد عليك قائلا:

كنت اكثر نشاطاً وحركةً منك.. كنت أحاضر هنا، واحاور هناك، وتبين لي بعد سنين من التجارب المريرة أنني كنت ساذجاً مغفلاً، وأن الامور ليست بهذه البساطة التي كنت أتصورها، وما عدت اليوم أثق بأحد ولا أصدق أحداً.

وآخر يقول: نحن في آخر الزمان، وما من يوم الا والذي بعده أسوأ منه، ولن يصلح أمر هذه الامة الا المهدي المنتظر!! ولا يدري هذا القائل أنه قد يمر ألف عام أو أقل من ذلك أو أكثر دون أن يظهر المهدي، ولو اخذ هو وغيره بأسباب النصر، وصدقوا مع الله لغيروا هذا الواق، ولكنه اليأس الذي حذرنا الله منه.

ومع وجود هذه السلبيات فهناك صحوة اسلامية في كل مكان من عالمنا الاسلامي... وهناك جموع غفيرة من الشباب عادوا - ويعودون - الى الله سبحانه وتعالى تائبين قانتين... ولهؤلاء الرجال همم وثابة، ونفوس عالية، والخير والبركة فيهم، وقد يقول قائل: فمالنا واليائسون المنهزمون إذن؟! والجواب على ذلك من وجوه:

منها: أن عمر هذه الصحوة عقدان، ونحن نقوّم مسيرة ستة عقود.

ومنها: أن هذه الصحوة ليست الأولى، لقد سبقها أكثر من صحوة، ومن الامثلة على ذلك صحوة الخمسينات في مصر وبلاد الشام، ولم تحقق تلك الصحوة أهدافها ،لأن أعداء الله تمكنوا بخبثهم ودهائهم من توجيه ضربة عنيفة لها، ونريد لصحوتنا الجديدة أن تتعظ وتستفيد من أخطاء الصحوة السابقة.

ومنها: أن الأمور تساس بالطريقة نفسها التي كان يساس فيها العمل الاسلامي قبل نصف قرن، وأن الجماعات اليوم أكثر عدداً، وأقل تعاوناً، ونتيجة لذلك فقد تمكن عدونا من إجهاض الصحوة الحديثة، وأقرب مثال على ذلك المصيبة التي حلت ببلاد الشام في أوائل الثمانينات.

نعود بعد ذلك إلى سؤالنا: لماذا تتكرر الهزائم رغم كثرة العطاء، والإستعدادللبذل والتضحية... ولماذا لم يستثمر الاسلاميون فرصاً ثمينةً يندر أن تتكرر؟!

سنجيب على هذا السؤال من خلال عرضنا لسنن الله في النصر.

سنن الله في النصر

الوحدةوالإئتلاف.

بين الله جل وعلا أن من أهم أسباب فشل المسلمين في غزوة أحد، تنازع الرماة، واختلافهم، وعصيان بعضهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: (ولقد صدقكم الله وعده، إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذر فضل على المؤمنين) (آل عمران/ 152).

وفي جميع غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم كان المسلمون صفاً واحداً وجماعةً واحدةً تتلقى أوامرها من قيادة واحدة. قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون، وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا أن الله مع الصابرين) (الانفال/45،46).

وطاعة الله ورسوله تعني سلامة المنهج والاعتقاد، كما تعني وحدة التلقي والتوجيه، والفشل حصيلة للتفرق واختلاف القلوب، وتعدد القيادات والجماعات.

وما من معركة خضناها – في هذا العصر – الا وكنا فيها جماعات متنازعة، وقيادات مختلفة متباغضة ،فكيف يتحقق النصر والتمكين؟!

إن الجميع يتحدث عن وحدة الصف ويكتب عنها، ويبشر بها، ومع ذلك فالنتائج مؤسفة ومخيبة للآمال، ويتضح بعد كل محاولة أن كل فئة كانت تحاول إخراج الفئة الأخرى وتمكر بها، وتفرض عليها شروطاً تتعارض مع أهداف الوحدة والائتلاف.

والمحاولة الجادة الناجحة يجب أن تستهدف إصلاح أمراض النفوس والقلوب.. فإذا تغيرت النفوس، وامتلأت القلوب بالتقوى، تغير كل شيء في حياتنا.

ولا يزال بيننا من يتجاهل هذه النصوص الصريحة، ويظن أنه قادر على صنع الأعاجيب، وهو قابع في سرداب مظلم، ويستصغر أعمال وأنشطة إخوانه من الدعاة والجماعات الاخرى الذين يكرهون السراديب وظلمتها… فلنتق الله جميعاً ولنتدبر قوله تعالى: (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) (الصف/4).

أجل! لن نحقق نصراً، ولن نغير هذا الواقع الا اذا اصبحت الجماعات جماعة واحدة، والصفوف صفاً واحداً، وكان لنا قيادةً واحدة ٍتتمسك بما كان عليه الرسول واصحابه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.